□ عُلُوُّ هِمَّةِ الحيوانات □

«قال تعالى : ﴿ **وما من دابة في الأرض ولا طائر يَطيرُ بجناحيه إلا أُممٌ أمثالكم ما فرَّطنا في الكتاب من شيءٍ ثم إلى ربهم يُحشرون** ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

قال سفيان بن عيينة : ما في الأرض آدميٌّ إلا وفيه شَبَهٌ من البهائم ؛ فمنهم مَنْ يهتصر اهتصار الأسد ، ومنهم مَنْ يعْدُو عَدْو الذئب ، ومنهم مَنْ ينبح نُباح الكلب ، ومنهم مَنْ يتطوَّس كفعل الطاووس ، ومنهم مَنْ يُشبه الخنازير التي لو أُلقي إليها الطعام الطَّيِّب عافته ، فإذا قام الرجل عن رجيعه ولغت فيه ، فلذلك تجد من الآدميين مَنْ لو سمع خمسين حكمة لم يحفظ واحدة منها ، وإن أخطأ رجل تروَّاه وحفظه .

قال الخطابي : ما أحسن ما تأول سفيان هذه الآية واستنبط منها هذه الحكمة ! وذلك أن الكلام إذا لم يكن حكمُه مُطاوعًا لظاهره وجب المصير إلى باطنه ، وقد أخبر الله عن وجود المُماثلة بين الإنسان وبين كل طائر ودابة ، وذلك مُمتنِعٌ من جهة الخلقة والصورة ، وعَدَمٌ من جهة النطق والمعرفة ؛ فوجب أن يكون مُنصرفًا إلى المُماثلة في الطباع والأخلاق . وإذا كان الأمر كذلك فاعلمْ أنك إنما تُعاشر البهائم والسِّباع ، فليكنْ حذرُك منهم وتباعُدُك إياهم على حسب ذلك . انتهى كلامه .

« والله سبحانه قد جعل بعض الدوابِّ كسوبًا مُحتالًا ، وبعضها متوكِّلًا غير مُحتال ، وبعض الحشرات يدَّخر لنفسه قوت سنته ، وبعضها يتَّكل على الثقة بأن له في كل يوم قَدْر كفايته رزقًا مضمونًا وأمرًا مقطوعًا ، وبعضها يدَّخر ، وبعضها لا تكسُّبَ له ، وبعضها يؤثر على نفسه ، وبعضها إذا ظفر بما يكفي أمَّة من جنسه لم يدعْ أحدًا يدنو منه .

وهذا كله من أدلِّ الدلائل على الخالق لها سبحانه وعلى إتقان صُنْعه ، وعجيب تدبيره ولطيف حكمته ، فإنَّ فيما أودعها من غرائب المعارف وغوامض الحِيَل وحسْن التدبير والتأنِّي لما تريده ، ما يستنطق الأفواه بالتسبيح ، ويملأ القلوب من معرفته »[1] .

يا هذا ، إنَّ « النحل إذا رأتْ بينها نحلة مهينة بطَّالة قطَّعها وقتلها حتى لا تُفسد عليهنَّ بقية العمال وتُعديهن ببطالتها ومهانتها »[2] .

يقول ابن القيم : « في النحل كرامٌ عمال ، لها سعيٌ وهِمَّة واجتهاد ، وفيها لئامٌ كسالى ، قليلةُ النفع ، مُؤْثِرةٌ للبطالة ، فالكرام دائمًا تطردها ، وتنفيها عن الخليَّة ، ولا تُساكنها ؛ خشية أن تُعدي كرامها وتُفسدها » .

« وكلّ نحلة تُريد دخول الخليَّة بعد عودتها يشمُّها البوَّاب ويتفقَّدها ، فإنْ وجد منها رائحة مُنكَرة ، أو رأى بها لطخة من قذرٍ ، منعها من الدخول ، وعزلها ناحية إلى أن يدخل الجميع ، فيرجع إلى المعزولات الممنوعات من الدخول ، فيتفقدّهن ويكشف أحوالهن مرَّةً ثانية ، فمَنْ وجده قد وقع على شيءٍ مُنتن أو نجس قدَّهُ نصفين ، ومَنْ كانت جنايته خفيفةً تركه خارج الخليَّة . هذا دأبُ البوَّاب كلَّ عشيَّة » .

وقوم لوط كانوا أحقرَ هِمَّةً من هذه الحشرة . قال تعالى : ﴿ **فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهَّرون** ﴾ [النمل : ٥٦] .

ومن عجيب أمْر النحل أنها تقتل الملوك الظَّلَمةَ المُفسدة ولا تدين لطاعتها ، وتكره النتن والروائح الخبيثة ... ومن بني آدم مَنْ لو كانت

---

(١) شفاء العليل لابن القيم ص٧٧ - ٧٨ دار المعرفة .

(٢) شفاء العليل ص٦٦ .

للذنوبِ رائحة ما استطاع أحدٌ أن يُجالسه ؛ من نتن رائحته التي لو فاحتْ لضجَّتْ منها المشام ، ومع هذا لا يُقلع عن الغيِّ والآثام .

النملُ وبعدُ هِمَّتِهِ :

« والنملة تخرج من بيتها تطلب قوتها وإنْ بعُدتْ عليها الطريق ، فإذا ظفرت به حملته وساقته في طُرُقٍ مُعوجَّة بعيدة ، ذات صعود وهبوط ، في غاية من التوعُّر ، حتى تصل إلى بيوتها ، فتخزن فيها أقواتها في وقت الإمكان ، ولا تتغذَّى منها نملة مما جمعه غيرها .

والنمل فطرها الله سبحانه على قُبْح الكذب وعقوبة الكذَّاب ، والنمل من أحرص الحيوان ، ويُضرب بحرصه المثل .

وهي على ضعْفها شديدة القوى ، فإنها تحمل أضعاف أضعاف وزنها وتجرُّه إلى بيتها . ولها صِدْقُ الشمِّ ، وبُعْدُ الهِمَّةِ ، وشِدَّةُ الحرصِ . وكلُّ نملة تجتهد في صلاح العامَّة منها غير مُخْتلِسة من الحَبِّ شيئًا لنفسها دون صواحباتها .

ومن عجيب أمْرها أن الرجل إذا أراد أن يحترز من النمل لا يسقط في عسل أو نحوه ، فإنه يحفر حفيرة ويجعل حولها ماءً ، أو يتخذ إناءً كبيرًا ويملؤُهُ ماءً ثم يضع فيه ذلك الشيء ، فيأتي الذي يطيف به فلا يقدر عليه ، فيتسلَّق في الحائط ويمشي على السقف إلى أن يُحاذي ذلك الشيء ، فتُلقي نفسها عليه ، وجرَّبنا نحن ذلك »[1].

المُبدِّلون وتابعوهم أخسُّ هِمَّةً من القرود :

« ومن عجيب أمْر القرد ، ما ذكره البخاري في صحيحه عن عمرو

(١) شفاء العليل ص٦٨ - ٧٠ .

ابن ميمون الأودي قال : « رأيتُ في الجاهلية قِرْدًا وقردةً زنيا ، فاجتمع عليهما القرود ، فرجموهما حتى ماتا » . فهؤلاء القرود أقاموا حدَّ الله حين عطَّله بنو آدم »[١] .

من لم يعرفْ لِمَ خُلق أشدُّ بلادةً من البقر :

وهذه البقرة يُضرب ببلادتها المثل . وقد أخبر النبي ﷺ : « بينما رجل يسوق بقرةً إذ ركبها فضربها ، فقالت : إنا لم نُخلقْ لهذا ، إنما خُلقنا للحرْث » . فقال الناس : سبحان الله ! بقرة تتكلَّم !! فقال عليه الصلاة والسلام : « فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر »[٢] .

ومَنْ لم يعرفُ الطريقَ إلى منزله أبلدُ من حمار :

قال ابن القيم : « ومن هداية الحمار - الذي هو من أبلد الحيوان - أن الرجل يسير به ويأتي به إلى منزله من البُعد في ليلة مُظلمة ، فيعرف المنزل ، فإذا خُلِّي جاء إليه ، ويُفرِّق بين الصوت الذي يُستوقف به والصوت الذي يُحَثُّ به على السير »[٣] .

فمن لم يعرف الطريق إلى منزله - وهو الجنة - فهو أبلدُ من حمار !!

ومَنْ لم يُوقِّر العلماءَ فالحيتان أشرفُ منه :

قال ﷺ : « إنه لَيستغفر للعالِم مَنْ في السموات ومَنْ في الأرض ، حتى الحيتان في البحر »[٤] .

وقال ﷺ : « إنَّ الله وملائكته وأهل السموات والأرض ، حتى النملة

---

(١) شفاء العليل ص٨٤ .

(٢) رواه البخاري في صحيحه - كتاب الأنبياء .

(٣) شفاء العليل ص٧٤ .

(٤) صحيح : أخرجه ابن ماجه .

في جُحْرها وحتى الحوت ، لَيُصلُّون على مُعلِّم الناسِ الخيرَ »[١] .

فكيف بمن صيَّر العالم النحرير زنديقًا ؟!!

ومَنْ لم يعلمْ كلامَ الأنبياءِ وصدْقَهم فهو أخسُّ من الذئاب :

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : عدا الذئب على شاة فأخذها . فطلبها الراعي فانتزعها منه . فأقعى الذئب على ذَنَبِه . قال : ألا تتَّقي الله ! تنزع مني رزقًا ساقه الله إليَّ . فقال : يا عجبي ، ذئبٌ مُقعٍ على ذَنَبِه يُكلِّمني كلام الإنس ! فقال الذئب : ألا أخبرك بأعجب من ذلك ؟! محمد ﷺ بيثرب يُخبر الناس بأنباء ما قد سبق . قال : فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة ، فزواها إلى زاوية من زواياها ، ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره ، فأمر رسول الله ﷺ فنودي : الصلاة جامعة ، ثم خرج ، فقال للراعي : « أخبرْهم » . فأخبرهم ، فقال رسول الله ﷺ : « صدق والذي نفسي بيده »[٢] .

ففي هذا الحديث ما يُفيد بأن هذا الذئب كان بالمدينة ، وعلم بما يقوله عليه الصلاة والسلام ، وأدرك مما يقوله عليه الصلاة والسلام ، وحدّده بأنه كلام عن الأُمم السابقة . فكيف بمن يعلمون كلَّ شيء عن تاريخ المشركين والفراعنة ، ولا يعلمون زِنةَ خردل ومثقال ذرَّة عن حياة أئمة الموحِّدين من أنبياء الله !! بل - والله - ويقولون في جريدتهم الأهرام : أول مَنْ دعا إلى التوحيد إخناتون ، وهو الذي كان يعبد الشمس ، وأنَّ مزامير داود مُقتبسةٌ من نشيد الرعاة لإخناتون ... كبرتْ كلمةً تخرج من أفواههم إنْ يقولون إلا كذبًا .

---

(١) صحيح : أخرجه الترمذي .

(٢) صحيح : أخرجه أحمد ، وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (١٢٢) .

مَنْ لم يُوحِّدْ ربَّه ويُبصر نورَ الوحي ، فالهُدهُدُ أرفعُ مكانةً منه :

فقد أنكر الهُدهد على قوم سبأ عبادتهم للشمس من دون الله . فقال تعالى : ﴿ **وجدتُها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم فصدَّهم عن السبيل فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله الذي يُخرج الخبءَ في السمٰوات والأرض ويعلم ما تُخفون وما تُعلنون** ﴾ [النمل : ٢٤ - ٢٥].

فكيف لو رأى الهُدهُدُ غاندي وقومَهُ وعَبَدَةَ الفئران ؟!

إن الهُدهُد أنكر على قوم بلقيس عبادتهم للشمس ، فكيف لو رأى غاندي زعيم الهند وقومَه الذين يعبدون البقر أشدَّ الحيوانات بلادةً ؟!

قال غاندي : « عندما أرى البقرة لا أجدني أرى حيوانًا ؛ لأني أعبد البقرة ، وسأُدافع عن عبادتها أمام العالم أجمع » . وقال : « وأُمِّي البقرة تفضُلُ أُمِّي الحقيقية من عدَّة وجوه: فالأم الحقيقية تُرضعُنا مُدَّة عام أو عامين وتتطلَّب منا خدمات طول العمر نظير هذا ، ولكن أُمّنا البقرة تمنحنا اللبن دائمًا ، ولا تطلب منّا شيئًا مُقابل ذلك سوى الطعام العادي » . وقال : « إن ملايين الهنود يتجهون للبقرة بالعبادة والإجلال ، وأنا أعدُّ نفسي واحدًا من هؤلاء الملايين »[١] .

قال الشيخ الدكتور عمر سليمان الأشقر : « قد قرأتُ في مجلة العربي التي تصدُرُ في الكويت عن معبد فخم مكْسُوٍّ بالرخام الأبيض تُرسَل إليه الهدايا والألطاف من شتى أنحاء الهند،بقي أن تعلم أنَّ الآلهة التي تُقدَّمُ لها القرابين وتُرسَل لها النذور في ذلك المعبد الفخم إنما هي الفئران »[٢].

---

(١) مقارنة الأديان ٣٢/٤ .

(٢) الرسل والرسالات للدكتور عمر سليمان الأشقر ص٣٧ - ٣٨ ، مكتبة الفلاح ، ودار النفائس .

وهداية الحيوان فوق هداية أكثر الناس . قال تعالى : ﴿ **أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إنْ هم إلا كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلًا** ﴾ [الفرقان : ٤٤] .

قال أبو جعفر الباقر : والله ما اقتصر على تشبيههم بالأنعام حتى جعلهم أضلّ سبيلًا .

الحيوان أعلى هِمَّةً وأعظمُ قدرًا من أغبياء بني آدم :

وذلك ؛ لأنه يُسبِّح مولاه ويُشفق منه .

عن عمرو بن عبسة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما تستقلُّ الشمس فيبقى شيء من خلق الله إلا سبَّح الله بحمده ، إلا ما كان من الشياطين ، وأغبياء بني آدم »(١) .

وقال ﷺ : « ما من دابة إلا وهي مُصيخة(٢) يوم الجمعة ؛ خشية أن تقوم الساعة »(٣).

وقال ﷺ : « لا تطلعُ الشمس ولا تغربُ على أفضل من يوم الجمعة ، وما من دابة إلا وهي تفزع ليوم الجمعة ، إلا هذين الثقلين : الجن والإنس »(٤).

---

(١) حسن : أخرجه ابن السُّنِّي ، وأبو نعيم في الحلية ، وحسَّنه الألباني في الصحيحة رقم (٢٢٢٤) ، وصحيح الجامع رقم (٥٥٩٩) .
(٢) منصتة ومُستمعة ومُصغية ، تتوقع قيام الساعة .
(٣) صحيح : أخرجه أحمد في مسنده ، والمنذري في الترغيب والترهيب ، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب (٤٥٧) .
(٤) صحيح : أخرجه أحمد في مسنده ، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب رقم (٤٨٦) .

الخُنْفُساءُ وعُلُوُّ الهمَّةِ في الصبر :

قيل لرجل : مَنْ علَّمك اللِّجاجَ في الحاجة والصبر عليها وإن استعصتْ ؟ قال : مَنْ علَّم الخنفساء إذا صعدت في الحائط ؛ تسقط ثم تصعد ثم تسقط ، مرارًا عديدة ، حتى تستمرَّ صاعدة !!

الغراب والبكور :

والغراب يُضرب به المثل في البكور . فيُقال : بكور كبكور الغراب.

وقيل لرجل:مَنْ علمك البكور في حوائجك أول النهار لا تخلُّ به ؟ قال: مَنْ علَّم الطَّيْرَ تغدو خماصًا كلَّ بُكرة في طلب أقواتها، على قُرْبها وبُعْدها ، لا تسأم ذلك ، ولا تخاف ما يعرض لها في الجوِّ والأرض !!

أبو أيوب (الجمل) وصبْرُه :

وقيل لآخر : مَنْ علَّمك الصبر والجلَدَ والاحتمال ؟ قال : مَنْ علَّم أبا أيوب صبْره على الأثقال والأحمال الثقيلة والمشي والتعب وغلظة الجمّال وضربه ، فالثِّقَلُ والكَلُّ على ظهره ، ومرارة الجوع والعطش في كبده ، وجهْد التعب والمشقَّة ملأ جوارحه ، ولا يعدل به ذلك عن الصبر !!

الدِّيك وحُسْنُ إيثاره :

وهذا الديك ، يُصادف الحبَّة في الأرض وهو يحتاج إليها فلا يأكلها ، بل يستدعي الدجاج ويطلبهن طلبًا حثيثًا ، حتى تجيء الواحدة منهن فتلقطها وهو مسرور بذلك طيِّب النفس به ، وإذا وُضع له الحَبُّ الكثير فرَّقه هاهنا وهاهنا وإن لم يكن هناك دجاج ؛ لأن طبعه قد أَلِفَ البذل والجود ، فهو يرى من اللُّؤم أن يستبدَّ وحده بالطعام .

بل واللهِ يسهر ليوقظ غيره !!

فعن زيد بن خالد رضي الله عنه أنه قال : قال عليه الصلاة والسلام :

« لا تسبُّوا الدِّيك ؛ فإنه يدعو إلى الصلاة » . وفي رواية أبي داود : « فإنه يوقظ للصلاة »(١).

مَنْ لا يدعو عند الفَجْر ، فالخَيلُ أكرمُ منه :

وإنْ تعجبْ لِهمَّة الخيل فاعجبْ :

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنه ليس من فرس عربي إلا يُؤذن له مع كل فجر ، يدعو بدعوة ، يقول : اللهم إنك خوَّلتني مَنْ خوَّلتني من بني آدم ، فاجعلني من أحبِّ أهله وماله إليه »(٢) .

بل ويخبرنا ﷺ بإكرام الله له ، فيقول : « إنَّ هذا الفرس قد استُجيب له دعوته »(٣).

الأُسْدُ لا تقع على الجِيَفِ ولا تأكل البايت :

الأُسْدُ لا تأكل إلا من فريستها ، وإذا مرَّ الأسد بفريسة غيره لم يدنُ منها ولو جهده الجوع !

والذئبُ أعلى هِمَّةً من الجيفة بالليل ، النؤوم :

الرجل الذي يأكل كثيرًا وينام كثيرًا ويُميته ويُفقره نومُه ؛ الذئب أعلى هِمَّةً منه ، فالذئب إذا نام « جعل النوم نُوَبًا بين عينيه ، فينام بإحداهما ، حتى إذا نعست الأخرى نام بها وفتح النائمة ، حتى قال بعض العرب :

ينامُ بإحدى مُقلتيه ويتَّقي ... بأخرى المنايا فهو يقظانُ نائمُ »(٤)

---

(١) صحيح : رواه أحمد وأبو داود ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٧١٩١) .

(٢) صحيح : رواه أحمد ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٤١٠) .

(٣) صحيح : رواه أبو داود ، وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٢٣) .

(٤) شفاء العليل ص٧٦ .

ومَن لا يُغيثُ الملهوفَ ، فالعصفورُ أشرفُ منه :

« فالعصفورة إذا سقط فرخُها تستغيث ، فلا يبقى عصفور بجوارها إلا جاء ، فيطيرون حول الفرخ ، ويُحرِّكونه بأفعالهم ، ويُحدِثون له قوةً وهِمَّةً حتى يطير معهم »[(١)].

من لم يكن عصاميًّا فليستحِ من الحَمَام :

فالحمام يزقُّ الحَبَّ لفرخه ، « فإذا أطاق اللقْط منعه أبواه الزقَّ على التدريج ، فإذا تكاملت قوَّتُه وسألهما الكفالة ضرباه »[(٢)].

في الحيوانات أخيارٌ وأشرارٌ ، فالتقطْ خيرَ الخِلال ، وخلِّ خسيسها :

« إذا لم تنفع أخاك فلا تؤذِه ، وإن لم تُعطِه فلا تأخذْ منه ، لا تُشابهنَّ الحيَّة ، فإنها تأتي إلى الموضع الذي قد حفره غيرها فتسكنه .

ولا تتمثّلنَّ بالعُقاب ، فإنه يتكاسل عن طلب الرزق ، ويصعد على مرقب عالٍ ، فأي طائر صاد صيدًا اتبعه ، فلا تكون له هِمَّة إلا إلقاء صيده والنجاة بنفسه .

في الحيوانات ، أخيار وأشرار كبني آدم ، فالتقطْ خيرَ الخِلال ، وخلِّ خسيسها :

لا تكنِ العصافير أحسنَ منك مروءةً ، إذا أُوذي أحدها صاح ، فاجتمعن لنُصرته ، وإذا وقع فرْخُها ، طِرن حوله يُعلِّمنه الطيران .

يا هذا ، تخلَّقْ في إعانة الإخوان بخُلُق النملة ، فإنها قد تجد جرادةً لا تُطيقُ حمْلَها ، فتعود مُستغيثة بأخواتها ، فترى خلفها كالخيط الأسود قد جئن لإعانتها ، فإذا وصلن بالمحمول إلى بيتها رفَّهنه عليها .

هيهات ، إن الطبع الردي لا يليق به الخير :

---

(١)،(٢) شفاء العليل ص٧٦ .

هذه الخُنْفُساء إذا دُفنت في الورد لم تتحرَّكْ ، فإذا أُعيدتْ إلى الرَّوث رتعتْ .

وما يكفي الحيَّة أن تشرب اللبن ، حتى تمجَّ سُمَّها فيه ، « وكُلٌّ إلى طبعه عائد » إلَّا أن الرياضة قد تُزيل الشرَّ جملةً ، وقد تُخفِّف .

إنْ دُمتَ على سلوك الجادة ؛ رجوْنا لك الوصول وإن طال السُّرى .

يا هذا ، الفيل والجَمَل يسبحان ، ولكنّ الفيل مليح السباحة ، والجمل يسبح على جنب ، فيفتضح عند سباحة الفيل ، ثم كلاهما يعبر »[١] .

هـو الكونُ حيٌّ يُحـبُّ الحيـاةَ ويحتقـرُ الميْـتَ مهما كبُـرْ
فلا الأُفْقُ يحضنُ ميْتَ الطيورِ ولا النحلُ يلثمُ ميْتَ الزَّهَـرْ

أخي :

كُنْ كالنسـورِ على الـذُّرا تُصغـي لوشـوشـةِ القمـرْ
إيـاك أن تكـنِ الغــرا بَ يُرمِّمُ الجِيفَ الحقيرةَ في الحُفَرْ

لله دَرُّك كالنسر نُريدك تصيح :

إنَّ المعاولَ لا تهدُّ مناكبي والنارُ لا تأتي على أعضائي
فارموا إلى النارِ الحشائش والعبوا يا معشرَ الأطفالِ تحت سمائي
وإذا تمرَّدت العواصفُ وانتشى بالهولِ قلبُ القُبَّـةِ الزرقـاءِ
ورأيتمـوني طائـرًا مُترنِّمـًا فوق الزوابع في الفضاءِ النائي
فارموا على ظلِّي الحجارةَ واختفوا خوفَ الرِّياحِ الهُوجِ والأنواءِ
وهناك في أمنِ البيوتِ تطارحوا غثَّ الحديثِ وميِّتَ الآراءِ
وترنَّموا ما شئتمُ بشتائمي وتجاهروا ما شئتـمُ بعـدائي
أما أنا فأُجيبُكم من فوقِكم والشمسُ والشفقُ الجميلُ إزائي

---

(١) المدهش لابن الجوزي ص٥٥٠ - ٥٥١ .

مَنْ جاشَ بالوحي المُقدَّسِ قلبُهُ   لم يحتفلْ بحجارةِ الفلتـاءِ[1]

* * *

(١) « نشيد الجبار » لأبي القاسم الشابي ص١٨٠ - ١٨١ من ديوان « أغاني الحياة » .